اللواء عبد المنصف محمود باشا

شاعر

له شخصية آسرة تستهويك . . . فتنزلق إلى حبها واجلالها فى ذات الوقت بل وتتفانى فى الإخلاص لها

رجل إذا ابتغيت أن تعرف معنى الرجولة ، وإنسان إذا حاولت أن تتلمس روح الإنسانية...

البشاشة تغمر وجهه ، والذكاء يشع من رأسه ، والنشاط يتوقد فى خطواته وحركاته . . .

فى عيونه بريق الأمل ، وفى هامته المرفوعة العزة التى لا تعنى الكبرياء، وفى طموحه المراءة وسمو المثل ..

سريع فى تفكيره . سريع فى تدبيره . فالقانون الذى يتبعه هو أن لا ينفق دقيقة دون أن يعمل . . ويعمل لكى يرضى ضميره الذى لا يغفل

إذا تمنى فعل . وإذا أقدم فلا يحجم . وإذا وعد فلا يخلف . .

ينسى نفسه فى سبيل غيره ، ويضحى بكل ما يملك فى سبيل واجبه

يحب مليكه ووطنه حباً جماً . وكيف لا ! وهما العلم الخفاق الذى تأتلف حوله القلوب ، وتبذل الدماء رخيصة فى الذود عنه

إذا تحدث الناس عن جودة شعره . فهم لا يستطيعون أن يتناسوا قوة حلقه . فله أياد بيضاء على الأصدقاء والأعداء على السواء . وهذه خلة نادرة . فلم يفكر البتة إلا فى الخير لمن حواليه . . حتى الذين يوجهون اليه السهام من الخلف، أو يتصيدون فى الماء العكر .

وكثيرا ما تسنح له الفرصة لكى يأخذ بثأره ، ولكن هيهات أن يفعل . ويلتزم المثل القائل « العفو عند المقدرة »

تقلب فى مناصب شتى وفى كل منصب استحوذ عليه كان موضع الرضاء . بل ما هو أكثر من الرضاء . ونال عضوية أكثر من جماعة من جماعات الأدب وفى طليعتها جماعة نشر الثقافة بالاسكندرية التى بلغ رياستها أخيراً

وبالرغم من أنه لم يبرح بعد العقد الخامس . فقد تهيأت له الفرصة وجاب معظم بلاد العالم فى مهمات رسمية . فرأيناه فى أميركا وأوروبا وآسيا . . وغيرها مما لا يتسع المجال لسردها . ووضع أبحاثاً وثيقة فى نوعها تتميز بالدراسة العلمية الدقيقة والروح الأدبية الصرفة .

وفى طليعة أعماله الأدبية « أغرب ما شاهده ضابط بوليس » صدر فى جزئين . وهو مؤلف قصصى يسرد الاحداث ويتناول المشاكل بأسلوب جذاب منعش ! وهو يشبه إلى مدى كبير « يوميات نائب فى الارياف » للأستاذ الكبير توفيق الحكيم . ولا نغالى إذا أورينا بأن مثل هذا العمل الأدبى جدير بأن يعرض على الشاشة البيضاء على يد مخرج راسخ القدم فى فنه

وفضلا عن ذلك فهناك المؤلف الدسم الذى ظهر أخيراً بعنوان « دراسة

موجزة لمكافحة التهريب » عالج فيها الحقائق العلمية بريشة الرسام ودراسة المحقق وأناقة القصاص . ولم ينس أن يرصعها فى المناسبات الملائمة بأبيات من الشعر . . !

استهل هذا الشاعر خطواته مبكراً ولعله فى الرابعة عشرة . ولم يفتأ أن نجد فى سيره وراح ينازع كبار الشعراء . . واذا باسمه الذى دوى فى نطاق الأدباء والمتأدبين . . . يصعد فى آفاق الشهرة مقترنا بتلك الأغنية الرمزية التى يرتلها أعظم مطربى الشرق الأستاذ محمد عبد الوهاب بعد أن تفوق بها على شعراء العربية فى المباراة التى أقامتها وزارة الدفاع الوطنى لاختيارها

فاذا ذكرت أغنية « مين زيك عندى يا خضرة » ـ هذه الأغنية التى وضعت بالعامية لتصيب الهدف الذى نسقت من أجله .. فلا بد أن يذكر الناس اسم عبد المنصف كرادف لها

ولعل سر نجاحه وبلوغه هذه المكانة الأدبية التى يحظى بها الآن رغم مهامه واعبائه باعتباره « الحارس الأول للشواطىء » ! انه لايصنع الشعر وانما يصوغه من قلبه ، ويذيب فيه عاطفته ويعطره بأنفاسه . فلا عجب أن تتلمس فيه صورة من نفسه ، وذوبة من روحه

أما أن السامع أو القارىء لا يملك نفسه من تأثيره .. فهذا مما لا ريب فيه . فيكفى ـ علاوة على هذا كله ـ أن تتوفر فيه موسيقى اللفظ . ورقة العبارة وقوة المعنى .. وحرارته !

شعره فى جملته رصين للغاية . ومما يذكر له بالحمد والاكبار أنه لا يميل الى روح الاستسلام والهوان واليأس والخيبة التى تفشو بين الشعراء المحدثين ...

انه ـ والحق يقال ـ شاعر قوى . ملامح القوة بادية فى معانيه وقوافيه. وفى هذا يشبه ـ الى حد كبير ـ شعراء البادية الأول

أما أنه شاعر راوية فهذا شىء لا يحتاج الى تدليل . فله ذاكرة واعية هيهات ـ مهما كانت الاسباب والمسببات ـ أن تخطىء فى ايراد حتى كلمة من بيت ، أو تتشكك فى اسم قائله ! !

يأخذ عليه البعض أنه لم يساهم فى شتى اغراض الشعر وأنه مقل للغاية فى انتاجه ، وقد يصاحب هذا القول مظاهر الصواب

وعلى ذكر الانتاج ينبغى أن نقولها كلمة واضحة ، تقض مضاجع بعض الشعراء ـ إن انتاج الشاعر ليس بكثرته وانما بجودته وصاحبنا من الفريق الأخير الذى يقدم الى مائدة المجتمع ثماره الناضجة

تراه صوالا جوالا فى الحلبات الادبية والندوات الخاصة . ومهما اجتمع حوله من رجالات الأدب وأعلام الشعر .. فلا بد أن تتطلع اليه الانظار وتصغى اليه الآذان .. فأحاديثه العذبة واستشهاداته الطلية وفكاهاته المستملحة تثير موجة الرضاء والاعجاب فى الحاضرين . فيؤمون مجلسه بغير تكلف

ومن أعز الشعراء اليه ابن الرومى والمتنبى وأبو العلاء المعرى. فعلى حد قوله إن أمثال هؤلاء الشعراء لم يخلقوا بعد ..

والحديث عن عبد المنصف محمود متشعب النواحى .. ليس فى وسعنا أن نفيه حقه . بل إن هذه الصفحات تقصر دونه . ولذا نؤثر أن نسعى الى صومعته الشعرية .. ونقلب فى خواطره.

فماذا رأينا وماذا قرأنا ! ؟

قطعة طريفة .. أطلق عليها « لذة الحرمان » ، هى أول ما تذوقناه من إنتاجه المخبوء..

لا أنت هانئة ، ولا أنا هانى ... كل يخالط نفسه ، ويعانى
كل لفرط إبائه متكتم ... ويود لو بدأ الحديث الثانى
الليل طال على ، حتى خلته ... رمساً يضم الحى قبل أوان
ياليل هل ضل الصباح مكانه ... فغدوت تنشده بكل مكان
غيبت عن هدى السماء نجومها ... ونشرت فيها ظلمة الحيران
وقرعت طبلك بالرعود وبرقها ... وسكبت دمع الثائر الغضبان
ياليل ، إنا حائران بلا هدى ... ياليت صبحى مثل صبحك دان
رحماك ، إنى فى هواك معذب ... وقنعت منك بلذة الحرمان

ترى أى تعبير دقيق لما يجول فى النفس ، وأى احساس هذا الذى انطلق مشاعره بهذا الشعر . انها لصورة حية ستبقى على الزمن بلا مراء لأنها صورة عامة أمينة ليس فيها مبالغة .

واذ نتصفح ديوانه الذى لم يكتمل نموه بعد تطالعنا « ذكرى » . ولذى ذكرى ينبغى أن نتمهل بل ونتوقف فى تهجد وخشوع ونصت الى صوته وهو ينسكب فى سمعنا

تذكرنى ليلى بسابق عهدنا ... فتذكى لهيباً للهوى فى فؤاديا
وأذكر أيام الهناء الذى مضى ... وأيام كنا لا نعد الليساليا

ولست بناس خير عهد قضيته ... ولا أنا شاك من هواى الذى بيا
تغيرت الأيام ياليل وانقضى ... زمان، شربنا الحب بالحب صافيا
صغيران كنا . لاتفارقنا المنى ... قريبان كنا فى الهوى والأمانيا
وها هى أعوام تمر على النوى ... أطالع فيها بالخيال خياليا
وعدنا ولازلنا يغالبنا الهوى ... ولكن هوانا قيدته العواديا
فلا أنت ياليلى تزالين فى الهوى ... ولازل من يهواك لو ظل صاديا

واذ لايزال صدى هذه الابيات يتردد فى آذاننا نتملى من لقائه وحبيبته . هذا اللقاء الأثير . الذى نزع عن نفسه فيه سورة الخجل فأقبل يلتهم القبل ويرتوى بالعناق . . حتى ليسكن فى الروع أن الجرأة بلغت من نفس الشاعر مبلغاً كبيراً . ولكن مثل هذا التوهم يتبددحين نراه يقول ما يقول « فى الخيال » وحسبنا أن نروى أقواله :

أقبل وجنتيك ولا أبالى ... رقيباً . أو عذولا فى الخيال
أضمك نحو صدرى فى هيام ... وأبلغ ما أحب ، وما بدالى
وأرشف من لماك بلا حساب ... وأخلع عنك أستار الجلال
وأسقيك خمور العشق سحراً ... وتسقينى خموراً من دلال
وأخفى حسنك الزاهى بضمى ... كما يخفى السحاب سنا الهلال
وأشفى علتى وقديم دائى ... فحذور الدواء من الحلال
وحسبى أننى صبت عفيف ... أثير الشعر فى هذا الخيال

وتقع فى أيدينا قصاصة من صحيفة سطر على جوانبها توبته فى الحب ، وتطهيره من أدرانه ، ومحاولته نسيانه . . تحت عنوان « تاب قلبي »

فؤادى بعد اليوم لن يعرف الحبا ... وطيفك بعد اليوم لن يسكن القلبا
لقد كان قلبي في هواك مضللا ... يصدق مكذوبا ، ويفترض الكذبا
إذا تاب قلبي فالزمان كأنه ... صحائف بيض . لا يسودها حبا
فلا تعتبي ، لم يبق في القلب غاية ... لحب ، وإن حاولت اغراءه يأبى
ولا تندمي ، إني حملت من الأسى ... طويلا ، فذوقي اليوم من ندم حربا
ولو ملا لاكان منك يسيئني ... وكنت مطيعاً في الهوى دنفاً صبا

ويروق لشاعرنا أن يقارن بينه وبين آدم . ولا يجد في ذلك غضاضة فهو الإبن وذاك هو الجد ! فينشد على لسان الشيطان في « أنا وآدم »

أغراك آدم تفاح على شجر ... فبعت جنة خلد بيع أفلاس
أشقيت بعدك أهل الأرض قاطبة ... وفاز ابليس : يغرى الناس بالناس
إن بعت دنيا شقاء لا يقيم بها ... بالخد والنهد . بالتفاح والآس
فهل ألام بنى من باع جدكمو ... ذاك النعيم . وهل قستم بمقياس ؟
هذا حبيبي ، وهذا حسنه عجب ... فاق الأزاهر : في بشر وانياس
حلوله صورة ، من نظرة طبعت ... في مقلتي ، فأعمتني عن الناس
السحر في العين والألحاظ منذرة ... من رام وصلا أضاع العمر بالياس
ثغر أبيع به عمري وأحسبني ... عوضت آدم في خسرانه القاسي !

ومثل هذه القصيدة أحدثت أثراً وضجيجاً في الوسط الأدبي حين نشرت لأول مرة في ديوان الإسكندرية . وقد تناولها بالاطراء اذ ذاك المغفور له الأستاذ الكبير عبد القادر حمزه باشا صاحب البلاغ الغراء حتى لقد قال « لو لم يقل عبد المنصف سوى هذه القصيدة لكفاه فخراً . . . فهي ترفع من مكانته . كما رفعت المعلقات أصحابها ! ! »

ويمضى الشاعر الى البيت الذى اعتاد أن يرتاده واعتاد أن يجد فيه صفوه ! فيجده خاوياً .. فهل يرتد من حيث أتى وينطوى على الصمت أو هل يرضى من الغنيمة بالاياب !

انه كان يريد أن يحتجز مشاعره فى نفسه .. ولكنها تفجرت .. وتسمرت قدماه للحظة وبعض لحظة أمام البيت الذى راح يحدثه ويناجيه بلغة القلب الملتاع

الدار موحشة تشق وتشقينا ... كانت بلابلها بالأمس تشجينا
واليوم نمشى فلا عين تشيعنا ... الى الطريق ولا رأس يحيينا
ولا جميل محيا خلف نافذة ... يومى الينا ولا صمت يناجينا
ولا ابتسامة ثغر منك نعهدها ... تنسى الهموم ولا قرب يعزينا
من نور وجهك كان الصبح مؤتلقاً ... وها هو الصبح بعد البعد يمسينا
أصبحت بعدك لا ألوى على أحد ... كأنما الناس مذ كانوا أعادينا
أصبحت والناس حولى لا أرى أحداً ... من ذا سواك اذا ما غبت يعنينا ؟
انى دعوتك فى حل وفى سفر ... عل الليالى التى مرت تواتينا

ولا ينسى أن يصف قلبه لحبيبته فيقول فى معرض حديثه عن الهوى :

هلا علمت بأن قلبى ساعة ... دقت تؤكد حبها للجاحد
ملئت بحبك ليس يوقفها سوى ... نسيان عهدك والغرام الخالد

ويحظى الشاعر بمقدرة خاصة قد لا تتوفر فى سواه وهى التفوق فى الاناشيد الوطنية فنراه يضع أول نشيد قومى لمصر ولعل ذلك فى عام ١٩٣١ . ومن خيرة أناشيده تلك التى صاغها ليرتلها الكشاف المصرى وها نحن نوردها .

أنا الكشاف وذا قسمى بالله ، بملكى ، بالوطن
لمليك النيل ، أنى الهمم أخلصت ، بحقك ، يا وطنى
أنا ذا الكشاف ، وذا قسمى

* * *

أنا رمز الخير ، وفاعله ونصير الحق ، وقاتله
وقصارى جهدى أبذله لأجيب نداءك يا وطنى
أنا ذا الكشاف ، وذا قسمى

* * *

على أعليه وأحميه بدماء العزة أرويه
بالروح وما لى أفديه لأتوج مجدك يا وطنى
أنا ذا الكشاف ، وذا قسمى

* * *

اهرام الدهر بوادينا تنبى عن روعة ماضينا
آثار المجد تنادينا العالم دونك يا وطنى
أنا ذا الكشاف ، وذا قسمى

* * *

وطنت النفس لأن أحيا وأكون أنا المثل الأعلى
وأحب لغيرى ما أهوى وأعيش لأجلك يا وطنى
أنا ذا الكشاف ، وذا قسمى

فليحى لمصر وليسلم فاروق الكشاف الأعظم
قبه للعليا تتقدم هو فخر شبابك يا وطنى
أنا ذا الكشاف ، وذا قسمى

ومثل هذا النشيد - بلا مراء - غاية فى الروعة ، مبنى ومعنى .

وإذ نتحدث عن الأناشيد يتعين ألا ننسى فى هذا السياق نشيد البحار ونشيد الجندى .. وهما نشيدان يثيران الكبرياء الوطنى ، ويوقظان الحماس القومى

كما ينبغى أن نذكر جيداً تلك النماذج الرائعة من الرثاء والتى أبى أن يسمح لنا بنشرها . فهى قطرات من دمع يسكبها قلب حزين !

* * *

وعلى هذا لايخطىء من يقول بأن هذا الشاعر يلهم فينتج ! وتتوفر له المواهب التى تجعله يجيد التعبير عن الخوالج ، وتصوير الأحاسيس .. ويتسم بأخيلته المستحدثة ، ومعانيه المبتكرة ..

وأخيراً هذا هو اللواء عبد المنصف محمود باشا مدير عام مصلحة خفر السواحل وحرس مصايد الأسماك والجمارك ! !